٨

الحب مفسرًا للتاريخ

لم نقصد بهذا العنوان أن نثير الاحساس بالطرافة ، أو المفارقة ، وإن كان بذاته ينطوى على الطرافة والمفارقة . فقد عرفنا منطلقات المفكرين أو نظرياتهم فى تفسير التطور الحضارى للبشرية ، وانتقال مراكز التأثير فى بقاع العالم ، فهناك التفسير الاسطورى ، والمثالى ، والدينى ، والمادى ، وغير ذلك أيضا ، حاول كل ان يقدم لنا مفتاحًا واحدًا يفض مغاليق جميع الأبواب ، فى جميع العصور ، لأن هذا هو شرط « النظرية » .

ولكن : ما شأن الحب ؟ أين يقع بين هذه التفسيرات ؟ أم أنه متضمن فى كل منها على نحو خاص ، وبهذا أخذ الحب ركنا أو زاوية فى نظرية ، ولم يصل إلى درجة التجريد والتعميم الذى يجعل منه نظرية قائمة بنفسها ،يمكنها أن تفسر التطور البشرى ، وتعليل قيام الحضارات وانهيارها ..

إن هذا صحيح إلى حد ما ، لا يهون من شأنه ان يرفضه أصحاب الأفكار النمطية ، التى لا تتقبل مخالفة ما لقنت من فكر موروث ، حفرته الأزمنة المختلفة ، فاكتسب حق الانفراد . ان أحداثًا على جانب عظيم من التأثير فى التاريخ البشرى العام ، أو فى تاريخ منطقة أو مرحلة بعينها ، يمكن تفسيرها ، بل لا يمكن تفسيرها إلا بالحب !! فهل كان بين آدم وحواء غير الحب ، حين وقفا منفردين فى مكان خال ، أدركا أن عليهما أن يعمراه ليستطيعا الاستمرار ومقاومة الفناء ؟ وهل كانت الجريمة البشرية الأولى حين بسط قابيل يده بالقتل إلى أخيه هابيل إلا بسبب من الحب ، كما يرى بعض الشراح ؟ وهل حظى يوسف – عليه السلام – بثقة العزيز ، ومن ثم استقدم أهله إلى مصر ، فكان أول دخول لبنى إسرائيل إلى مصر ، فى ظل استعمار الهكسوس ، وبحمايتهم ، إلا بعد حادثة حب ، تحدث عنها القرآن بتفصيل لم تصل قصة أخرى إلى مثله ؟ وهل أهلك قوم لوط إلا انغماسهم فى الحب الشاذ ؟

إن « تجميع » هذه الجزئيات ، وإخضاعها لتفسير واحد أمر ممكن ، وبهذا لا يبعد أن نجد أنفسنا أمام رؤية مختلفة ، ولا أقول : جديدة تماما ، لتفسير التاريخ . وان « قراءة » من هذا النوع لمراحل حضارية ، ولشخصيات مؤثرة فى عصرها ، وما جاء بعده من عصور ، ستكشف عن إضافات مؤصلة لمثل هذه النظرية المقترحة ، بحيث تملك قانونها الخاص ، أو ديناميكية عملها ، وسر حركتها . إن اشباع الحب ، أو السباحة حتى الغرق ، أو الأكل حتى البشم ،

Obeikandl.com

تؤدى إلى نتيجته . كما أن الحرمان المطلق ، كالضرب على غير هدى فى صحراء جافة ، أو الإكراه على الصيام ، يؤدى إلى نتيجته أيضًا . ومن المقابلة بين النقيضين يمكن أن نحصل على « الخط العام » للنظرية .

شخصيات كثيرة ، وأحداث كثيرة ، فى القديم والحديث ، عند غير العرب ، كما عند العرب ، لعب الحب فى تكوينهم ، أو تكوينها ، أدوارًا خطيرة مؤثرة . سواء فى الغرق فيه أو الحرمان منه ، فى الاصرار عليه ، أو فى التراجع عنه . يذكرنا البحاثة الدكتور عبد اللطيف أحمد على بأسباب حرب طروادة ، التى قامت عليها أعظم ملاحم الأدب – « الالياذة » – فإن هذه الحرب الضارية لم تنشب – وفقا لهوميروس إلا بسبب « هلين » الجميلة ، التى تركت زوجها « منلاوس » ،ملك اسبرطه ، وفرت مع الأمير الطروادى الجميل « باريس » !! ولقد هزمت طروادة فى النهاية بعد مقاومة بطولية ، وكانت هلين تشارك فى مجلس الدفاع ووضع خطط الحرب ، فلما انتهت بهزيمة الطروادين ، وعادت هلين مكرهة إلى زوجها ووطنها ، « غفرت لها زلتها ، وعاشت معززة دون انتقاص من سمعتها أو مساس بكرامتها »[1] . وكما نرى هذا الحب المادى العنيف ، تمرد على الشرعية ، والوطنية ، والوفاء ، ويعود حاسرا باسرا ليمارس حياته القديمة كأن لم يحدث شيء ، من رؤية مادية خالصة ، سنجد فى الالياذة نفسها أول مشاهد الحب الرومانسى الرقيق بين زوجين متآلفين ، حين يقرر « هكتور » الطروادى منازلة « اخيل » بطل الاغريق . ان اندروماك – زوجة هكتور تبذل كل وسيلة لتحول بين زوجها ومنازلة أخيل ، لأنها تعرف عاقبة هذا النزال : « لخير لى أن أموت من أن أفقدك ، فلن يبقى لى أى عزاء إذا لقيت حتفك ، ولن يبقى شيء سوى الحزن ، فليس لى الآن أب أو أم .. أنت يا هكتور أبى وأمى وأخى وزوجى الشهم . ارحمنى الآن وابق هنا فى القلعة ، ولا تيتم ابنك ، وترمل زوجتك » ، لكن : هل ينتصر الدافع الخاص ، الحرص على الزوجة والولد ، على الدافع العام : البطولة وحماية الوطن ؟ ان شخصية هكتور تأبى ذلك ؟ بل أنه يضع الخاص فى صميم هذا العام الذى يدافع عنه ، ومن أجله يبذل حياته ، يقول لزوجته اندروماك فى موقف الوداع : « أنا لست قلقًا على ما قد ينزل بالطروادين .. بقدر ما أنا قلق عليك من أن يسوقك جندى وأنت دامعة العينين إلى ذل العبودية ، واتصورك وأنت فى أرجوس تغزلين على المنول لامرأة أخرى ، وتحضرين الماء من بئر غريبة وأنت مسلوبة الإرادة صاغرة مقهورة . ويقول كل من يراك باكية : ها هى زوجة هكتور الذى بز فى الوغى كل الطروادين ... ولسوف ينتابك الحزن من جديد على فقدان رجل مثلى قد يخلصك من العبودية ، ليتنى أموت ويهال على جسدى التراب ، قبل أن أسمع صرخاتك وهم يسوقونك إلى الأسر »[2] .

---

(١) التاريخ اليونانى : العصر الهلاوى ص ٥٤ .

(٢) السابق ص ٥٥ .

obeikandl.com

هذا المستوى الرفيع من الحب الزوجى ليس مستغربا ، فهو قرين البطولة ، ولكنه ليس شرطا لها ، وقد كتب الدكتور عبد اللطيف فقرة عن « المرأة ومجتمع الرجل اليونانى » عميقة الدلالة فى الإشارة إلى طبيعة الحضارة اليونانية العقلية ،البطولية ، وكيف أنها فى سبيل هذين : الفكر والبطولة سخرت أو استباحت كل القوى والانفعالات الأخرى ، حتى قامت مجتمعات خالصة للرجال ، ليس فيها نساء ، ومجتمعات - أو صالونات - ومن ثم خالصة للنساء ، مع التسليم ضمنا بكل ما ينشأ عن هذا الانغلاق من عواطف وصداقات تختلف فى النوع أو الدرجة ، ونشير تحديدًا إلى ما كان بين سقراط والكيبياريس ، وما كان بين أفلاطون والسيباديس ، بل يشير إلى وجود « كتيبة مقدسة » قوامها ثلاثمائة شاب انخرطوا فى سلكها على أساس أن كل شابين بينهم متحابان ، وكانا يدربان على إنماء عاطفة الحب المتبادل ، والقتال سويا ، ولقاء الموت معا فى الميدان !! فى مثل هذا المجتمع تنشأ التكوينات النسائية الخاصة ، وتنتشر الغوانى كمحظيات أو « موديلات » أو خليلات . ولم يمنع هذا أن تبلغ الخليلة مكانة عالية فى نظام السلطة ، حتىانجبت أسباسيا (ومعناها : مرحبا أو أهلا وسهلا ، وفى هذا ما يدل على نوعية حياتها) وهى خليلة بريكليس ، انجبت له ولدًا بعد طلاقه من زوجته ، منحه المواطنة الأثينية بقانون استثنائى ، لأن هذه الخليلة لم تكن من أثينا !![1] .

هل من الممكن - بالتأمل ورصد عوامل النهوض والتدهور للحضارة اليونانية - ان نهمل عامل « الحب » ومفهومه ، وأثره فى التكوين الاجتماعى ؟ لا أظن أننا نكون على صواب لو فعلنا ذلك ، حتى ولو لم يكن هذا العامل وحده بقادر على تفسير أو تعليل النهوض والتدهور ، وليس هذا الأمر - على أى حال -خاصا بالحب ، لأن السبب الواحد ، أو العام المنفرد ليس باستطاعته ، مهما كانت أهميته ، أو جديته ، أن يفسر قيام حضارة ما ، أو سقوطها .

وإذا ألقينا نظرة سريعة على عصر لم يكن بعيدًا جدًا فى الزمان أو المكان عن العصر اليونانى ، ونعنى العصر الرومانى ، وعلى الأقل فى علاقته بالشرق ، أو بمصر فى بعض عهودها ، سنجد الحب يقود قيصر إلى كليوباترا ، ثم يقود إليها انطونيوس ، ثم يقوم الحب بدور يهجر انطونيوس زوجته الشرعية - حسب القوانين الرومانية -وهى أخت شريكه فى الحكم اكتافيوس ، وخصمه فى الأخير ، وهذه السلسلة من التصرفات العاطفية قد عجلت ، بل كانت من أهم أسباب الوصول بالصراع بين روما والإسكندرية إلى ذروته ، ونهايته .

وقد يبدو تعميما غير مقبول أن نقول إن الحب يلعب دائمًا مثل هذا الدور الخطير فى الحياة السياسية للشخصية التاريخية ، ولكن : من الإجحاف ومجافاة الحقائق أن نلغى كل الالغاء ،

---

(١) السابق ص ٦٩ - ٧٢ .

أو أن نهون من شأن الحب فى حياة الزعيم السياسى .. إن مثل إدوارد الثامن – الذى هجر عرش بريطانيا فى أزهى عصورها من أجل إصراره على الزواج من امرأة غير جميلة ، سبق لها الزواج ، هذا المثل لا يتكرر كثيرًا ، ولكنه يتحقق بدرجات متفاوته ، وبوسائل مختلفة تناسب الشخص والعصر والظروف ، بين حين وآخر . قد كان نابليون يملك شخصية الـ « دون جوان » ، ولكنه عانى من الهجر ، ومن الخيانة الزوجية أيضا ، ولم تكن حياته الغرامية هذه بمعزل عن قراراته وعلاقاته السياسية ، ومثلت الزوجة الأولى « جوزفين » والزوجة الثانية « مارى لويس » والمعشوقة التى رفضته زوجًا « ديزيريه » يمكنه أن يلقى أضواء على كثير من تصرفات واحد من عباقرة الحرب والسياسة فى القرن التاسع عشر . وإذا كان الإسكندر الأكبر ، مؤسس الامبراطورية الإغريقية ، على العكس من نابليون فى هذا الجانب ، فهذا أثر من تعاليم أستاذه أرسطو ، فيلسوف العقل وصاحب الفكر الاجتماعى الناضج . ومع هذا فإن الإسكندر – رجل الحرب –التمس حلا مثاليا للعداء المتأصل فى النفوس ما بين الشعوب المتناحرة على قيادة العالم فى عصره ، التمس هذا الحل فى الحب ، وليس فى الحرب ، فحين تمت له الغلبة على الفرس ، قام بالتوجيه إلى حركة زواج جماعى من ضباطه لفتيات فارسيات لينشأ جيل جديد أعمامه من الاغريق واخواله من الفرس ، ومن ثم يتم تصالح عرقى نهائى بين الحضارتين العظيمتين . وقد تزوج الإسكندر نفسه من ابنة كسرى ، ولكن الموت اعجله عن رعاية مشروعه ومساندته بحيث يمكن أن يغادر دائرة التصور المثالى أو « اليوتوبيا » إلى الواقع العملى ، الذى امتزج بالتجربة ، وعدل من نفسه بما يلائم الظروف المتغيرة .

ونغادر هذا الإطار العام لما نطرحه من وجود تفسير للتاريخ يبدأ أو يستند إلى عاطفة الحب ، إلى موضوعنا المحدد ، وهو التراث العربى . هل كان مثل هذا التصور لتاثير الحب غائبا عن أذهان المؤرخين ؟ إذا لنقرأ ما كتب من تاريخ أسطورى فى كتاب « التيجان » لوهب بن منبه ، بل لنقرأ فى المصادر الإسلامية ما جرى بين مدّعَيىْ النبوة : مسيلمة وسجاح ، وبعض هذه المصادر – على وقاره – يثبت الشعر الفاحش البذىء الذى قاله مسيلمة لسجاح حين عرض لها بالزواج(١) . وإذا كان ابن الأثير لم يرد الخوض فيما خاض فيه آخرون عن الطريقة التى تزوج بها خالد بن الوليد من أم تميم ، ليلى ، زوج مالك بن نويرة عقب قتله ، فإنه لم يستطع أن يحجب رأى عمر – رضى الله عنه – فى هذا الزواج(٢) ولقد ظل البطل القومى صلاح الدين الأيوبى يزحف على أملاك سيده نور الدين محمود ، حتى ضمها جميعا ، ووحدها تحت

(١) انظر مثلا ما كتبه ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٣٥٦ ، ومن الواضح أن هذا (الشعر !!) موضوع على سبيل التهكم والسخرية .
(٢) السابق ص ٣٥٨ – ٣٥٩ .

obeikandi.com

رايته هو ، وليس راية سيده ، ولم يسكت عنه حتى تزوج من « الخاتون » التى كانت زوجة لنور الدين !! إن الحب هنا يلعب دور الرمز للسيادة والسيطرة ، وهل كانت المعركة الدموية والنهاية الفاجعة لأم خليل المستعصمية ، الملقبة بشجرة الدر ، إلا صورة من صور الصراع على السلطة ممزوجة بالصراع من أجل الفوز بالحب ؟ !

لا نستطيع – إذًا – ان نبعد فكرة الحب لبعض حوادث التاريخ ، أو سلوك الشخصيات عن المؤرخين العرب وتصوراتهم . بل لعل مثل هذا التفسير أقرب مما نظن إلى خواطرهم ، لا ننطلق فى ذلك من فكرة مسبقة ظالمة ،ترى أن العقلية الشرقية – أو السامية أو العربية بصفة خاصة – أكثر ميلا إلى الخيال ، واللجوء إلى الخيال هربا من مواجهة الواقع وتحليله ، واكتشاف قوانين عمله ، وإنما لأن هذا التفسير كان يشيع بين رواة الاخبار ، وعامة الناس ، وبهذا يتحول إلى ما يشبه « الرأى العام » ، ولم تكن أخبار التاريخ أو ما يمكن أن يعتبر تاريخا ، وحتى ذلك الوقت – بمعزل عن أخبار الأدب ، وحكايات السمار ، رغم اختلاف أو تفاوت درجة التوثيق ، وليس هذا الأمر وقفا على المؤرخين العرب أو الإسلاميين ، ان تاريخ الرومان واليونان من قبلهم يحوى الكثير جدًا من هذا التداخل بين الحكاية المخترعة أو المبالغ فيها ، وبين الخبر التاريخى ، ولكن الفرق يكمن فى سلوك العصور التالية وموقفها من هذا التراث . لقد قاموا هناك بتمييزه وتنقيته ، ونقده بشجاعة علمية وموضوعية . وظللنا نحن نتعثر بحثا عن الحقيقة بين طرفيها المتباعدين : الخيال الفنى ، والحقيقة الموضوعية .

سنختار ثلاثة أمثلة من عصرين : الجاهلى والعباسى ، وإذا كانت العشوائية فى هذا الاختيار ليست كاملة ، فإن هذين العصرين لهما من الخطورة ما ليس لغيرهما : أمدنا العصر الجاهلى بالأخبار والروايات ، وقام العصر العباسى بتنسيقها واعطائها الشكل التوثيقى العلمى .

امرؤ القيس هو المثل الأول ، وهو شخصية أدبية ذائعة ، لها وجود تاريخى وسياسى ، إذ خاض حربا طويلة لاسترداد ملك أبيه ، على بنى أسد ، بالإضافة إلى قبيلته كندة .

لقد لعب العشق دورا خطيرا حقا فى حياة امرىء القيس ، وفى إنهاء تلك الحياة ، ولكن : إلى أى مدى يمكن التمييز بين الحقيقة والخيال فى هذا العشق ؟

لقد كان الأصفهانى منصفا ومعتدلا فى تصوير شخصية هذا الشاعر الذى عاش تجربة الحياة بكل ألوانها الزاهية والقاسية ، فعلى الرغم من روايته ليوم « دارة جلجل » ، التى نصب فيها الفتى الشاعر كمينا عند الغدير ، احتجز فيه ثياب ابنة عمه « عنيزة » وصاحباتها ، فلم يسمح لاحداهن ان تسترد ثيابها حتى يراها عارية مقبلة مدبرة ، لم يستثن من ذلك ابنة عمه ذاتها ، حتى بعد المطاولة ، فإنه يسجل له متانة الأعصاب وقوة الشخصية ، وذلك حين بلغه مصرع ابيه . فقد كان الوحيد بين اخوته ، الذى لم يجزع لنبأ تلك الفجيعة التى تذهب بالروية وسلامة

التفكير مقدمة لسلامة التدبير ، حتى لقد بالغ الرواة فى هذا الجانب فجعلوه لا يتوقف عن اللعب مع صاحبه ، حتى إذا انتهى أخبره بما كان ، قائلا : « ما كنت لأفسد عليك دستك » ، ثم كان قسمه الذى لا يدل على شخص متهالك على اللذات : « الخمر على حرام ، والنساء حرام ، حتى اقتل من بنى أسد مائة ، واجزنواصى مائة »[1] . وكما أشارت المصادر إلى غزله بابنة عمه – وهو ما تأنف من إعلانه الفطرة العربية ، وإن كانت ابنة العم مفضلة فى الحب والزواج – هذا الغزل الفاضح وقد مال الغبيط بهما معا على ظهر الراحلة ، فكذلك أشارت إلى غزله بهر ، وهر بنت سلامة هى زوج أبيه ، بل يذكر بعضهم أن هذا التشبيب بزوجة الأب كان وراء غضب الأب ، حتى أقصاه ، وأخرجه من مساكنه ، فأخذ الشاعر يهيم بين المواقع ، تصحبه جماعة من أصدقائه ، ممن على شاكلته . ويقوم الدكتور طاهر مكى بمحاولة تصحيح لهذه الواقعة ، وليس بنفيها عن امرىء القيس ، وان أخذت حادثة الغزل بزوجة الأب درجة « الاحتمال » وليس الحقيقة الواقعة : « لا نستبعد مع هذا التفسير[2] ان يكون الابن قد شبب بامرأة أخرى لأبيه ، وان أباه غضب لذلك وطرده ، فمن ينصب الشباك لأبنة عمه عاشقًا ، ويلاحق جارية أبيه متغزلا ، يمكن أن تقع عينه على زوج أبيه مشتهيًا » . ويمضى الدكتور طاهر ليفسر هذا المسلك فى ضوء قوانين الوراثة القريبة والبعيدة ، فيقرر أنه « ليس فى أخلاق امرىء القيس كما يصورها شعره ما يأبى أيا منها ، وليست تأباه على النحو العنيف مثاليات أسرة يقبل الجد الأقرب فيها مبادىء مذهب يدعو إلى أن يكون المال والنساء على المشاع ، ثم يورثه ابنه من بعده سلوكا ، فنحن نعلم أن مما آثار قبيلة أسد على حجر ملكها ، أنه كان يغير على نسائها . كما أن امرأ القيس خلف أباه حجرا على زوجته هند بنت ربيعة بن وهب بن الحارث ، بعد وفاته ، ولم تكن أعقبت منه نسلا ، وكان ذلك من الجائز المقبول فى شريعة الجاهليين ، ولا أراه مستحبا أو مرغوبا فى شرعة الذوق السليم »[3] .

وكما قام العشق بدور خطير فى إبعاد امرىء القيس عن أبيه ، سواء كان ذلك بسبب التشبيب بابنة عمه ، أو بزوج أبيه[4] ، فإنه قام بدور أشد خطرا – فيما تزعم الرواية – فى صنع خاتمة مطافه القاسية ، وذلك حين رحل إلى قيصر الروم يستنصره على بنى أسد ، ويستعينه على استرداد

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ٩٧ وهذه رواية ابن السكيت ، أما رواية ابن الكلبى كما جاءت فى الأغانى أيضا ، فإنها أكثر تشددا ، إذ أقسم أنه لن يشرب الخمر ، ولن يقرب النساء ولن يأكل اللحم ، ولن يدهن بدهن ، ولن يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره !!

(٢) أى أن « هر » هى نفسها أم الحويرث ، التى جاء ذكرها فى شعره --وهى فى رأى الدكتور مكى جارية لحجر ، وليست زوجة له . انظر : امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية ص ٨٤ .

(٣) السابق ص ٨٥ – والذوق السليم عادة يحدده العرف الإجتماعى السائد فى ذلك العصر .

(٤) ذكر الأصفهانى فى الأغانى عن ابن الكلبى أن أباه طرده انفة من قول الشعر .

obeikandi.com

ملكه ، فصاحب الأغانى يذكر ان قيصر أكرمه ، بل أعانه بجيش كثيف ضم جماعة من أبناء الملوك . لكن قيصر ما لبث أن استرد الجيش ، ودفع بامرىء القيس إلى اليأس فالموت . أما أسباب هذا التحول ، فإنه يذكر أن رجلا من بنى أسد يسمى « الطماح » اندس فى حاشية قيصر ، فوسوس إليهم بأن قالوا لقيصر : « ان العرب قوم غدر ، ولا تأمن أن يظفر بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثت معه » . هذا التفسير يعتمد على تحليل الواقع ، فلم تكن فى الجزيرة العربية حكومة مركزية أو سلطة مستقرة يمكنها أن تلتزم بميثاق من موقع القدرة على فرضه . وربما كان « الوجه الآخر » لشخصية امرىء القيس ذات الوجهين لا يشجع على الثقة به ، من ثم كانت الرجعة فى القرار . ومع وجاهة هذا الرأى فإن الاصفهانى ينقل عن ابن الكلبى أيضا تفسيرا آخر يسبب قرار العدول عن مناصرة قيصر لامرىء القيس ، ليس استنادا لماضى الشاعر ، بل إلى ما فعله ابان اقامته فى ضيافة قيصر : « وقال ابن الكلبى : بل قال له الطماح (الجاسوس الأسدى الذى سعى إلى بلاد الروم ليفسد مسعى امرىء القيس) : ان امرأ القيس غوى عاهر ، وأنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل فى ذلك أشعارًا يشهرها بها فى العرب ، فيفضحها ويفضحك »[1] . ان هذا التعليل الأخير مصنوع لتشكيل قصة شاعر عاشق كل مراحل حياته عشق فى عشق ، ولم يكن امرؤ القيس ذلك الرجل ولا قريبا منه ، فإنه منذ تصدى لإدراك ثأر أبيه ، وحواره مع خصومه من بنى أسد ، واصراره على القتال ، وبخاصة تكرّره فى مرات عديدة ، يشير إلى مستوى آخر من الشخصية التى لا تتكشف كل أسرارها فى صدر حياتها ، ودون أن تعرض على محك الحوادث الجادة ، فضلا عما أشارت إليه المصادر ، ونسقه الدكتور طاهر تنسيقا بديعا ، وهو أن امرأ القيس لم يكن محظوظا عند النساء ، ولا حتى عند زوجته ، فإذا أضفنا إلى هذا أنه – عند قيصر كان قد تقدمت به السن والتجربة ، وأنه كان تحت قسمه ، وأنه كان يتصدى لأمر جاد وخطير ، فقد اجتمع لدينا ما ينفى قصة عشقه لابنة قيصر ، ومن ثم لا مجال لحكاية مخترعة عن حلة مسمومة جعلت منه « ذا القروح » ، وإنما هو المرض الجلدى المنبىء عن عجز جنسى ، زادت حدة المرض بتدهور الحالة النفسية عقب فشل السفارة إلى قيصر ، فكانت النهاية عاجلة !

وكما وجد فى القديم والحديث من يفسر أسباب الجفوة بين امرىء القيس وأبيه ، وأسباب مصرعه مسموما ، بالعشق ، فكذلك وجد من يفسر الجفوة بين الشاعر الجاهلى : النابغة الذبيانى ، وممدوحه النعمان بن المنذر ملك الحيرة . ونعود إلى « الأغانى » مرة أخرى –جـ ١١ – فنجده يقرر أن النابغة « أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم »[2] ، وأنه كان يحكم بين الشعراء فى

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ٩٩
(٢) هذه الإشارة استخدمت فى أحد تفسيرات ما كان من جفوة بين امرىء القيس وأبيه !!

عكاظ ، وأنه كان مهابا حتى لم يجرؤ أحد فى يثرب أن ينبهه إلى خطأ فنى فى شعره[1] ، وهذا كله يعنى أنه كان جديرًا بموقعه من النعمان ، إذ كان - كما يقول الأصفهانى نقلا عن عمر بن شبه ، عن أبى عبيدة - كبيرا عند النعمان ، خاصًا به ، وكان من ندمائه ، وأهل انسه . إلى أن وقعت الجفوة وخاف النابغة وهرب ، وطلبه النعمان ، فلجأ النابغة إلى خصوم النعمان التقليديين ، وهم الغساسنة ، إلى أن تصالحا فيما بعد . ولكن : لماذا الجفوة والتهديد بالموت ؟

هنا - مرة أخرى - يظهر العشق كسبب قريب ، يصنع قصة طريفة مشوقة ، فقد رأى الشاعر النابغة ، يوما وعلى سبيل المصادفة أو المفاجأة ، رأى المتجردة زوج النعمان ، وكانت جميلة بالطبع ، فأربكتها المفاجأة حتى سقط نصيفها (وهو الخمار) فاستترت بيدها وذراعها ، ومن هنا كانت قصيدة : « أمن آل مية » التى صورت هذا المشهد :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه ... فتناولتـه واتقتنـــا باليـــد

ولكن الوصف يتجاوز حركة اليد وظهور المفاجأة على ملامح الوجه ، وتحدد القصيدة ، أوصافا خفية من جسم المتجردة ، لا تقف عندما بدا منها فى هذا الموقف العابر ، ومن ثم ، لابد من ذكر سبب آخر يسيغ هذه الأوصاف المكشوفة ،التى لا تسمح بها الطباعة الحديثة لديوان النابغة ، وتضع فى مكانها نقطا ، تعففا أو تجنبا لمضايقة الرقابة . وهنا يظهر اسم شاعر آخر هو المنخل اليشكرى ، وكان جليسا للنعمان أيضا ، وعشيقا للمتجردة « كان يرمى بالمتجردة زوجة النعمان ، ويتحدث العرب أن ابنى النعمان منها كانا من المنخل » . ولا يكتفى الأصفهانى بهذا القدر الذى يجعل من زوج الملك حديثا للعرب ،بل يضيف أن هذا الزوج الابرش الدميم ، يسأل النابغة أن يصف المتجردة فى شعره فلما وصف بطنها وروادفها وفرجها لحقت المنخل من ذلك غيره فقال للنعمان : ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جربه ! فوقر ذلك فى نفس النعمان وبلغ النابغة فخافه ، فهرب فصار فى غسان !! . فتأمل كيف أحس العشيق لهيب الغيرة ، والزوج حاضر غافل حتى ينبّهه العشيق ، وتأمل أيضا معنى احتماء النابغة بالجبهة المعادية لصديقه أو سيده القديم !!

لقد ذكرت مصادر قديمة أيضا أسبابا أخرى للجفوة ، منها التنافس بين الشعراء على عطايا النعمان ، وقد يمزج هذا السبب التنافسى ، بالسبب الآخر - العشق - فيلقى النابغة قصيدته الفاضحة إلى مرة بن سعد القريعى ، وهو شاعر منافس فيقوم بابلاغها إلى النعمان .. إلخ .

---

(١) جاء هذا فى « طبقات فحول الشعراء » جـ ١ ص ٦٨ .

إن الدكتور محمد زكى العشماوى ، فى كتابه عن النابغة يرفض كل ذلك ، من حيث يثبت بتحليل شعر النابغة ان هذا الشاعر كان قد اتصل بالغساسنة قبل إتصاله بملوك الحيرة ، ويستقى الدليل من قصيدته التى مطلعها :

أتاركة تدللها قطام وضنًا بالتحية والكلام

إذ يزعمون أنها قيلت فى مدح عمرو بن هند – ملك الحيرة ، زعما منهم – كما يرى الدكتور العشماوى – أن اتصال النابغة بملوك الحيرة كان قديما ، يرجع إلى عهد الملك عمرو بن هند ، ولكنه يرى بأنها – القصيدة – كانت فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى ، ملك غسان . ويضيف الدكتور العشماوى إلى ما استنتج من هذه القصيدة أن اعتذاريات النابغة تشير إلى سبب الجفوة ، وذلك فى إشارته إلى الغساسنة بأنهم :

ملوك واخـــوان إذا ما اتيتهـــم أحكم فى أموالهـــم وأقـــرب
كفعلك فى قوم اراك اصطنعتهم ولم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا

كما يشير إلى أن موقع ذبيان كان أقرب إلى الشام منه إلى الحيرة ، وهذا يعنى أن مجمل الظروف التى أحاطت بالنابغة كانت تجعل بداية اتصالاته مع الغساسنة ، وان خطأه الذى لا يغتفر ، انه مدح الغساسنة أو اتصل بهم ، بعد أن نادم النعمان وصار عضوا فى حاشيته . ومن ثم فإن السبب سياسى لا دخل للمتجردة وقصة عشقها فيه[1] .

ونصل أخيرًا إلى المثل الثالث ، وتأمله يعطى صورة شبه كاملة للنفسية العربية عاطفة وفكرًا ، ومنهجها فى تناول القضايا الغامضة . هذا ما نجده فى تعليل وتحليل « نكبة البرامكة » نلتقى بمصدر واحد قديم ، مشهود له باستقصاء الأوجه للمسألة الواحدة ، هو « الكامل فى التاريخ » . يقول عن سنة سبع وثمانين ومائة – هجرية : « فى هذه السنة أوقع الرشيد بالبرامكة ، وقتل جعفر بن يحيى . وكان سبب ذلك أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن اخته عباسة بنت المهدى ، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب ، فقال لجعفر : أزوجكها ليحل لك النظر إليها ولا تقربها ، فإنى لا أطيق الصبر عنها ، فأجابه إلى ذلك » ولكن هذا الزواج – على الورق – أدى إلى ثمرته الطبيعية ،فولدت العباسة غلاما ، سيرته مع حواضن إلى مكة ، خوفا من الرشيد . « ثم ان عباسة وقع بينها وبين بعض جواريها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبى إلى الرشيد ، فحج هارون هذه السنة ، وبحث عن الأمر ، فعلمه ، وكان جعفر يصنع للرشيد طعاما بعسفان ، إذا حج ، فصنع ذلك ، ودعاه فلم يحضر عنده ، فكان ذلك أول تغير أمرهم »[2] .

---

(١) د . محمد زكى العشماوى : النابغة الذبيانى ص ١٨ – ٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١٧٥ .

وهكذا يضع ابن الأثير قصة هذا الحب الغريب ونتائجه فى مقدمة الأسباب التى أطاحت بدولة البرامكة ، وبرغم أنه سيذكر أسبابا متعددة تتصدرها عبارة « وقيل » ، « وكان من الأسباب أيضا » ، هى الأقوى والأقرب إلى الموضوعية ، فإن هذا السبب العاطفى يأخذ مكان الصدارة ، ويساق بلا أدنى عبارة تشكك فى احتمال صدقه . ولعل هذه الثقة التى أثارت ابن خلدون ، فأفاض فى مناقشة هذا التعليل ، وأسرف فى رده وتسخيف قائليه ، فى صدر تاريخه ، تحت عنوان « فضل علم التاريخ » ، بمناسبة ما يقع فيه المؤرخون من ترديد الأخبار المدخولة . لقد ناقش الأمر من كل زاوية ، وتحت كل احتمال : « وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها » وبعد تمجيد وإعلان لمواقع هؤلاء الآباء من الملة ومن قريش يتساءل مستنكرًا : « فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها » ؟ ثم يترك « الفردى » إلى الاجتماعى ، أو « العرقى » ، فيتساءل مستنكرًا أيضا : « كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ؟ » ثم يستنكر أن ينسب إلى الرشيد شرب الخمر ، واقتران سكره بسكر الندمان ، ويشيد بعلمه وعلم جده المنصور . وبعد محاولات النفى هذه ، وفى أثنائها يذكر ابن خلدون الأسباب الحقيقية التى يراها وراء العصف بالبرامكة ، وقد سبقه إليها المؤرخون أيضا . لكن الطريف حقا أن حجج النفى تعانى من الضعف والتناقض ، وهذا لا يعنى أننا نوافق على حكاية الزواج المذكورة فى ذاتها ، ان الكلام عن منصب العباسة ودينها وجلالها لا يعنى مطلقا أنها لن تتزوج ، وليس زواجها من جعفر بداخل فى باب الحرام أو المكروه ، وقد وصف الرشيد بالفقه والعدل ، فما أحراه بألا يعضل أخته فى هذا المقام .

ثم إن هذه النظرة المتعالية إلى « الموالى » لا تناسب ابن خلدون أولا ، ولا تناسب ما أثبته من صفات عالية للبرامكة ثانيا ، وما كان ينظر به الرشيد إليهم ثالثًا ، ويكفى أن ابن خلدون يعترف بأن الرشيد كان ينادى « يحيى » بعبارة « يا أبت » ! وجعفر « يا أخى » ، وكان يحيى يدخل عليه بلا إذن ، حتى فى غرفة نومه . فإذا سمح الرشيد – من موقع الحب والثقة والاعتراف بالفضل – أن ينادى أعجميا بيا أبت ، فإن القياس لا يستبعد أن يسمح بالمصاهرة الخفية على الأقل . ثم تأتى قصة الشرب ، وقد حدد ابن خلدون المشروب بأنه خمر . ولكن مصادر أخرى تذكر النبيذ ، وترى أن البعض ترخصوا فيه . ولنقرأ هذا الخبر الطريف الذى يسوقه ابن خلدون مساق الدفاع عن الرشيد ، وهو إلى النيل منه أقرب ، فبعد أن يذكر أن الرشيد –كما حكى الطبرى وغيره– كان يصلى كل يوم مائة ركعة نافلة ، وكان يغزو عاما ويحج عاما ، وفى هذا من الورع ما لا خلاف عليه ، يقول : « ولقد زجرا بن أبى مريم مُضحكه فى سمره ، حين تعرض له بمثل ذلك فى الصلاة لما سمعه يقرأ : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » وقال : والله ما أدرى لم ؟ فما تمالك الرشيد أن ضحك ، ثم التفت

إليه مغضبا ، وقال : يا ابن مريم فى الصلاة أيضا ؟ ! إياك إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما »[1] .

هنا يتكشف وجه آخر ، إنسانى وبسيط تمامًا ، لهذا الخليفة ، فما كان يمكن أن يرد على مضحكه بغير ما فعل . غير أن وجود المضحك واجتراءه على ما فعل ابان أداء الصلاة ، له دلالته الخاصة . ويبقى أخيرًا أن نذكر بما قلناه سابقا : اننا لا نملك دليل يقين على زواج جعفر وعباسة ، كما لا نملك دليل نفى ، ينهض على قراءة الواقع أو الوثائق ، إنما هى احتمالات وظنون ، أخذ بها الفن ، كما أخذ بها المؤرخون ، فمسرحية عزيز أباظة عن العباسة –وهى عمل فنى رائع حقا ، تذكر قصة هذا الزواج ، وتحدد اسم الغلام « حسين » الذى كان ثمرته ، ولكن شاعرنا تقصى أسباب النكبة فى كافة مظانها وبذلك لم يقع فيما وقع فيه أمير الشعراء فى مسرحية « قمبيز » ، لقد جعل خدعة الحب هى الموضوع الرئيسى ، مما جعل العقاد يتصدى له وينقده نقدا مرا . صحيح أن « شوقى » – رحمه الله –أشار إلى أسباب أخرى أطمعت فارس فى مصر ، ولكن لعبة الحب ظلت السبب الأول فى اذكاء روح الانتقام عند قمبيز .

وبعد ...

فقد لا يصح أن نجعل الفن الشعرى حكما على التاريخ ، بنفس المقدار الذى لا يسمح بأن نجعل التاريخ متحكما فى أخلية الشعراء وضرورات الفن المسرحى . الشعر ليس تاريخا ، انه خبرة انسانية ، والمسرح ليس وثيقة لحادثة ، وإنما هو تشكيل لهذه الخبرة وتعميق للاحساس بها . وإذ نعود إلى أول هذه الكلمات ، سنجد أن تفسير التاريخ بالحب لم يكن وقفا على الشعراء والأدباء قديما وحديثا ، وحسب ، وإنما كان هاجسا فرض وجوده ، على الرواة والاخباريين قديما ، وعلى المؤرخين فى كل العصور .

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر مجلد (١) ص ٢٧ .